الإعجاز في القرآن الكريم من الوجهة الإدراكية: الحواس الإنسانية أنموذجا (مقاربة عرفانية)

The miracle in Quran from a cognitive destination: Human senses as a model (cognitive approach)

د.فريدة رمضاني*

تاريخ الإرسال: 2023/06/30	تاريخ القبول: 2023/08/31	تاريخ النشر: 2023/12/31

الملخص:

الإعجازأحد الدعامات الأساسية لدراسة القرآن الكريم بجميع أشكاله، وإن كان الاهتمام في هذا المجال مقتصرا على اللغة والبلاغة فإن الحديث عن الإعجاز القرآني هو من صميم البلاغة المعاصرة و ما سنتطرق إليه في هذا المقال سيقتصر على المنظور العرفاني الذي يعد لب اللسانيات المعاصرة حيث سنعتمد في هذه الورقة البحثية على إظهار أهمية الحواس الإنسانية في عملية إدراك المعاني القرآنية و قد وقع اختيارنا على ثلاثة منها وهي السمع و البصر و الفؤاد باعتبارها المداخل الرئيسة للعقل و هو حقل معرفي جديد.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، القرآن، الإدراك، الحواس الإنسانية، العرفانية.

Abstract:

The miracle is one of the fundamental pillars of the study of the holy Quran in all its forms, and is the interest in this field limited to language and rhetoric, then talk of Quranic miracles is at the heart of contemporary rhetoric, and what we will address in this article will be limited to a cognitive perspective which is the core of contemporary linguistics, where this paper will depend on demonstrating the importance of human senses in the process of perceiving Quranic meaning, we have been selected on three of them, namely hearing, sight and heart, as the main entrances to the mind and is a new field of knowledge.

***Key words**:Miracle, Quran, perception, human senses, cognition.*

***جامعة لونيسي علي-البليدة2- f.ramdani@univ-blida2.dz**

*** *** ***

المؤلف المرسل: فريدة رمضاني f.ramdani@univ-blida2.dz

1. مقدمة:

من بديع إعجاز القرآن الكريم هو ذلك النظم العجيب لآياته والإتقان الدقيق لتصوراته؛ وقد لفت نظرنا ونحن نبحث حول أساليب القرآن البلاغية ذلك التجسيم لمشاهد يوم القيامة التي تتوزع بشكل متوازن يتناسب والمقاطع المرعبة لأهوال يوم الحساب، ليس هذا وحسب بل تجد السامع مشدوها بالأصوات القوية التي زادت هول المشهد بما يتوافق مع أحداث الساعة الكبرى.

إن الموضوع الذي اخترناه و الموسوم بـ: "الإعجاز في القرآن الكريم من الوجهة الإدراكية: الحواس الإنسانية أنموذجا (مقاربة عرفانية)؛ يهدف إلى البحث عن علاقة التصوير في القرآن الكريم بالحواس التي تعد أحد أهم المنافذ إلى العقل الذي تحصل فيه عملية الإفهام، وللتعرف على تفاصيل هذا البحث سنحاول طرح بعض الإشكاليات لتيسير معرفة أسرار هذا النوع من الإعجاز و من أجل الكشف عن الارتباطات القوية بينه و بين مباحثه في اللسانيات المعاصرة نتساءل عن: ما مدى إسهام العلوم العرفانية في توضيح مواضع الإعجاز في القرآن الكريم وما أهمية رفع الغطاء عن الجانب البلاغي وربطه بالعلوم اللسانية العصبية المعاصرة، وللإجابة عن هذه الأسئلة وأخرى سنحاول الاستعانة بالمقاربة العرفانية و ما آلت إليه من تجديد وتحديث لآلياتها التي لا تقتصر على الوسائل اللغوية بل هي في ذلك تعتمد على الآلات العالية التقنية لمعرفة ما يحصل في الدماغ البشري.

2. الإعجاز في القرآن الكريم:

إن الكون ينطق بإعجاز الله تعالى في خلقه وعظيم قدرته وحكمته فلا غرابة أن يكون كتابه الذي يحمل رسالة الإسلام للعالمين معجز في نظمه وبديع في بيانه؛ لقد فاجأ القرآن الكريم البشرية بنظامه وتناسب ألفاظه وقبل ذلك أدهش العرب الذين عرفوا

بالبيان والفصاحة:" بعد أن أحدث في نفوسهم تلك الهزة التي زلزلت أعرافهم اللغوية والبيانية والنحوية، وفتتت سبائكهم التعبيرية المتوارثة، ولكن من غير أن يعني هذا، تمكن العرب من تقليد السبائك القرآنية نفسها أو النسج على منوالها."[1]

إن القرآن الكريم أعجز أساطين البلاغة العربية وأوقعهم في الحرج في أن يأتوا بسورة من مثله أو دونها ولكن أعجزهم ذلك، وحد الإعجاز مثلما أورده ابن منظور في لسان العرب هو:" عدم القدرة وفي الحديث: كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، وقيل أراد بالعجز ترك ما يجب فعله بالتسويف، وهو في أمور الدنيا والدين والمعجزة: وأحد معجزات الأنبياء عليهم السلام."[2]

والمتأمل في مصطلح الإعجاز يجد أنه:" الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها،"[3] وهو ما تعدى حدود بشريتهم وتجاوز سننهم التي توارثوها عن آبائهم و هذا بالضبط ما تنبه إليه العلماء القدماء حيث تبين لهم: "أهمية هذا الجانب الإعجازي في لغة القرآن الكريم، وإلى تفرد القرآن بهذا النوع من اللغة، وأنها ليست في لغة البشر، ويورد السيوطي مجموعة من أقوالهم في هذا الباب، منها:و قد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن، حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجها و أكثر و أقل، و لا يوجد ذلك في كلام البشرو ذكر مقاتل في صدر كتابه حديثا مرفوعا(لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة) و أخرج ابن سعد من طريق عكرمة عن ابن عباس: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرسله إلى الخوارج، فقال:(اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، و لكن خاصمهم بالسنة).[4]

ولا غرو أن وجوه الإعجاز عديدة لا انقطاع لها في البلاغة والنظم:" إن إعجاز القرآن لا يكمن في إيجاد لغة من لا شيء، وإلا لنفصل بنفسه وبتعاليمه عن البشر، أيا كانت لغتهم، وإنما في بناء لغة جديدة على أسس اللغة القديمة نفسها، والتحليق بعد ذلك في فضاءات واسعة لم تعرفها أو تصل إليها اللغة التقليدية."[5]ومثال ذلك الإعجاز في القرآن الذي عرج بنا إلى التمثيل الذهني والتصوير الإدراكي.

3. الإعجاز القرآني من الوجهة الإدراكية:

1-3 مفهوم الإعجاز في التصوير الإدراكي:

يمكننا الاستئناس بمفهوم التصوير الذي جاء به السيد قطب الذي قال: "هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية؛ وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد."[6]

وقريب من المفهوم -الذي سقناه آنفا- نلفي التصوير يدور فيما يعرف في المناويل العرفانية بالإدراك الحسي والمراد به:" الصورة المرتسمة في الوعي العقلي مؤلف من الرسالة الواصلة إلى العقل مع رد فعل العقل في تمييزها وإضافة شيء إليها أو حذف شيء منها، وهو مماثل لإدراك معنى كلمة بذاتها،"[7] ونعتقد أن دلالة التعريف الأول الذي ساقه صاحب التصوير الفني والثاني في مجال العرفنة هو واحد وهو تلاق يقتضيه المقصود بالإعجاز في القرآن الكريم الذي من أسراره الجسدنة بتعبير لايكوف.

إن القرآن الكريم يصور المعاني فتخرج من التجريد إلى التجسيد والمثير في الأمر:" أن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى، من الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها الوحيد."[8]

إن التصوير الإدراكي في القرآن الكريم ينقل لنا المشاهد بأبعادها وأعماقها وبحركاتها وسكناتها وبنطقها وبصمتها وبوسوسة خواطرها وهجسات نفوسها، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلقطة أو لقطتين أو ثلاث للمشهد الواحد،[9] وهو أمر لا عجب فيه إذا علمنا أن القرآن معجز ليس في ألفاظه وتراكيبه بل بتعبيراته وتصويراته، والحقيقة أن التصوير القرآني لا يقف عند صور بلاغية بعينها بل نجده يرسم المعاني رسما حسيا

يظهر في الصورة التمثيلية وقد تفطن علماء العربية إلى مدى قوة التأثير للمشاهد التصويرية في النفس البشرية.

ومن تلك النماذج نجد الجرجاني يقول: "إن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا."[10]

2-3 الوجهة الإدراكية في البلاغة القرآنية الجديدة:

تتعدد التأويلات وتنتظم الدلالات البلاغية بشأن الوجهة الإدراكيةالتي لها مزايا وملامح متفردة في البلاغة القرآنية الجديدة: "وينقل السيوطي لنا، مع ذلك، عددا من الشهادات المتقدمة من كبار اللغويين والنقاد الذين أدركوا، كما يجب أن نتوقع، أن التجديد اللغوي والأسلوبي هو أحد أهم الجوانب الإعجازية في القرآن، إن لم يكن أهمها على الإطلاق."[11]

إن البناء الجديد للتصوير الإدراكي يظهر بشكل جلي في البلاغة القرآنية التي لم يعهدها العرب في أسلافهم وهذا مناط الإعجاز الرباني الذي خص به نبيه ﷺ إذ: "لم يتوقف أمر التجديد في التعبير القرآني عند حدود اللغة، بل تجاوزها إلى فنون البلاغة، فأدخل القرآن على قواعد الصورة والعلاقة بين أطرافها أبعادا لم تكن معروفة من قبل، وأوجد من الفنون البيانية ما لا قبل للعرب به، وما لم يستطيعوا تقليده في شعرهم أو نثرهم بعد ذلك أبدا."[12]

وقد يعتقد القارئ -مما سقناه- أن البلاغة القرآنية الجديدة أسقطت أو أنقصت من جمال العربية غير أن الواقع عكس ذلك تماما حيث كان: "الخروج على أعراف العرب اللغوية، وتطوير قواعدهم النحوية تطويرا يغنيها ويضيف إليها من غير أن يلغيها أو يحل محلها قواعد جديدة مغايرة، هو البوابة الواسعة التي عبرت منها لغة القرآن الكريم لتحقيق هذه الغاية."[13]

وفي مقابل ذلك، استخدم القرآن الكريم اللغة العربية بأسلوب جديد غير معهود ومن المفيد هنا أن:" نتنبه إلى حقيقة قد تغيب عن بالنا، في زحمة انشغالنا باكتشاف الطبيعة الجديدة للنسيج اللغوي القرآني، وهي أن هذا النسيج الجديد ظل جديدا حتى يومنا هذا،"[14] وهذا ما يلمسه القارئ للغة التي كتب بها النص القرآني في ضوء البلاغة القرآنية الجديدة.

3-3 المنظور الإدراكي القرآني في اللسانيات العرفانية:

لقد افتتن العلماء على اختلاف تخصصاتهم بالإعجاز القرآني لما فيه من عجائب علمية ولغوية وبلاغية وسيظل هذا الكتاب معجزا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولبيان إعجازه من الوجهة الإدراكية وامتداداته في اللسانيات العرفانية نعود بالقارئ إلى النظريات الإدراكية التي فتحت لنا باب الحديث عن سر من أسرار القرآن الكريم.

وما يجدر التنبيه إليه، أن القرآن الكريم لا يفتأ يصور أحداث قصصه بطريقة التصوير كأنك تراها وتسمعها وتدرك معانيها بالفؤاد؛ ولم نجد علما درس هذه الحواس بشكل جلي سوى اللسانيات العرفانية التي تبحث عن مسارات المعلومة التي يركز فيها الباحث أثناء دراستها على:" العمليات العقلية التي تتم بين المتكلم والمستمع، وبها يتم التواصل بين البشر، وهو منهج جديد في تحليل المعنى، وعلى هذا يقوم علم الدلالة العرفاني في دراسة المعنى على مداخل أربعة تمثل دعائمه الأساسية (المقولة-الفهم-الخيال-التجسد) مفاتيح لإدراك المعنى، ومن خلال ذلك يمكن إعادة فهم ذواتنا وفهم العالم من حولنا وفهم اللغة والإبداع."[15]

إن ما تقدمت به اللسانيات العرفانية في مجال النظرية الإدراكية حقيق بأن يلتفت إليه؛ لأنها تدرس: "كيفية بناء المعنى في ذهن المتكلم من عناصر لغوية وغير لغوية معرفية مختلفة، عن طريق بناء صورة ذهنية له، ثم توظيف هذه الصورة الذهنية "[16] في فهم الواقع، وهذا بالضبط ما هو ماثل في الإعجاز القرآني.

وهناك أمر آخر، هو أن تفسير البلاغة القرآنية من منظور اللسانيات العرفانية لم يقتصر على النظرية الإدراكية بل تعداها إلى العديد من النظريات مثل نظرية الاستعارة التي تندرج ضمن اللسانيات المعاصرة التي تعرف بكونها مفهوما مركزيا بل هي

أحد الآليات التصويرية الإدراكية الهامة في اللغة الإنسانية والمقصود بها هي تلك: "الظاهرة التي يتم فيها بناء مجال خيالي (تصوري) بشكل منهجي، ومن ناحية أخرى فإن إحدى السمات المهمة للاستعارة هي توسيع المعنى؛ أي أن الاستعارة يمكن أن تثير معنى جديدا."[17]

وقد تنوعت الاستعارات في الإعجاز القرآني وهي موظفة بطريقة في غاية الدقة إذ يخاطب بها الله عز وجل عباده على ضوء بشريتهم التي تقبل التجسيد الحقيقي للصور في الدماغ:" إن أنساقنا التصورية العادية التي نفكر بها، ونعمل على ضوئها؛ هي أساسا أنساق استعارية في طبيعتها،"[18] وما دامت كذلك فإن عملية التأويل ودائرة التفسير لذواتنا وللعالم ستتمحور حول الاستعارات التي نحيا بها.

3. الإعجاز القرآني في الحواس الإنسانية:

لا يخفى على المتمعن في أساليب الإعجاز القرآني تلك الدقة في الوصف التي ارتبطت في الكثير من المواضع بالسمع والبصر وسائر الحواس إنها: "المنافذ المفتوحة التي يطل منها العقل على الوجود كما أنها طرق إلى العقل والتي بواسطتها يميز بين الأشياء،"[19] ولولاها لما عقل الإنسان ما حوله من الأحداث بل لما استطاع أن يقيم العلاقة بين الأشياء ويدركها على حقيقتها.

واضح أن عملية التصوير لا تخرج عن إطار الحس والإدراك الذي يقودنا إلى المعرفة وهي ضربان الأول هو ظاهر في الحواس الخمس المعروفة و الثاني باطن خفي هو العقل والقلب،[20] و لهذا كان اختيارنا في هذا البحث مؤسسا على السمع والبصر والفؤاد للعلاقة المتينة الحاصة بينهم و تأثيرهم العجيب في تشكيل التصورات في الذهن و هذا ما سنمثل له في كتاب الله تعالى.

يقول الله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾[21]

تعتبر حاسة السمع من أدق الحواس في نقل المعلومات إلى الدماغ حيث تستقر في الذاكرة التي تعد أكبر خزان للمعرفة، و لا يحصل هذا الأمر إلا من خلال جهاز السمع

(الأذن) الذي يعبر من خلاله الصوت إلى المخ و يقوم بتحليله وترجمته؛ والملاحظ في الآية القرآنية الكريمة هو ذكر السمع دون البصر وهي أبلغ في عملية التصوير الحسي لما يقع عند القذف في جهنم، ولعل أصدق ما وصل إليه العلم هو: "أن الإحساسات الصوتية التي يسمعها الإنسان بأذنيه تصل مستوى الوعي أحسن من تلك التي تصله عن غير طريقهما كالبصر مثلا"[22] وهو ما ورد في سورة الملك في الآيات التي تلت شاهد الدراسة الوارد في الآية الثامنة.

وأكثر ما يميز التصوير القرآني لجهنم وهي تميز من الغيظ هو سماع أصوات الشهيق وهو: "الصوت الخارج من الجوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد والكمد الطويل وهو صوت مكروه السماع فكأنه تعالى وصف النار بأن لها أصواتا مفظعة يهول من سمعها ويصعق من قرب منها"[23] وهي استعارة تصويرية تعكس مشهد الكفار وهم يقذفون فيها وكأن السامع يراهم ويسمع صياحهم والنار تفور أي كما:" قال الثوري تغلي بهم من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم."[24]

إذن، نستنتج أن استحضار الصورة في الآية مرتبط بالصوت الفظيع الذي عبر عنه المولى عز وجل بالشهيق وانعكاس حال المتساقطين في النار وهو مشهد مرعب شديد يدركه كل من فهم معاني الآية الكريمة و هي ميزة في النص القرآني دون غيره، و هنا تأتي الاستعارة الثانية ملازمة للأولى يقول تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[25]: "من قزلهم تغيظت القدر وصف النار نعوذ بالله منها بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه غذا بلغ ذلك الحد أن يبالغ في الانتقام و يتجاوز الغايات في الإيقاع و الايلام وقد جرت عادتهم في صفة الإنسان الشديد الغيظ بأن يقولوا يكاد فلان يتميز غيظا أي تكاد أعضاؤه المتلاحمة تتزايل و أخلاطه المتجاورة تتنافى و تتباعد من شدة اهتياج غيظه و احتدام طبعه فأجرى تعالى هذه الصفة التي هي أبلغ صفات الغضبان على نار جهنم لما وصفها بالغيظ ليكون التمثيل في أقصى منازله وأعلى مراتبه."[26]

ويقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ١٠.﴾[27]

إن التصوير القرآني للفظ الأبصار يشد النظر إذ صور الله عز وجل في هذا المشهد المثير للرعب والخوف كيف تزيغ الأبصار أي تتفرق وهي استعارة المراد بها: "تشتت ألحاظها وعدولها عن جهة استقامتها نظرا إلى مطالع الخوف و جزعا من مواقع السيف ومن عادة الخائف المتوقع أن يكثر التفاته وتتقسم ألحاظه،"[28] وهو الأمر الذي حصل بالفعل في معركة الخندق والمعروف أن لحظة الإبصار تتم بطريقة مستقيمة ذلك أنه: "إذا وقع النور على المرئيات، انعكس عنها، ودخلت خطوطه العين، ورسمت على الشبكية صور المرئيات، و هي تؤديها إلى الدماغ، ولكن النور بانعكاسه على المرئي تكون خطوطه مستقيمة،"[29] لكن في حالة الخوف والفزع تتشوش الرؤية من الالتفات إلى الاتجاهات الأربع فيزيغ البصر وينعكس ذلك على الوجه.

وعلى الرغم من محاولة المنافقين إضمار مشاعرهم الحقيقية المتمثلة في الجزع وقلة الصبر إلا أن بارقة السيوف خلعت قلوبهم من أماكنها وتبين عدم قدرتهم على الجهاد وقتال العدو وهو ما أورده الله في سورة الأحزاب؛ ولأن العين وحدقتها: " نافذة مفتوحة على حقيقة الحياة الشعورية عند الأحياء، وكذلك مختلف عضلات الوجه التي تعطي لحالتنا الشعورية الظاهرة والباطنة تعابير تشكيلية بحسب الحالات النفسية" التي يشعر بها الشخص فإن الإعجاز التصويري في الآية الكريمة ظاهر من خلال الوصف الدقيق لحدقة العين حال الهلع والخوف.

وتتمة لما جاء من وصف المنافقين في ظل ذلكم الكرب العظيم الذي ابتلى الله به المؤمنين وكشف فيه نفاق المشركين فإننا تحصلنا على جواب وجدناه في الدراسات السيكو عصبية التي أثبتت أنه تتحكم:" في عضلات الوجه والعين أعصاب إرادية و غير إرادية ومهما أوتي الإنسان من قوة إرادة في التحكم بعضلات وجهه كي لا يعطيها الأشكال والحركات التي تنم عن حقيقة شعوره، تبقى هناك عضلات تتبع في أوامرها الجهاز العصبي المستقل الذي لا يأخذ أوامره من الإرادة، بل من الانفعالات الشعورية"[30] التي يعيشها ومن هذه العضلات عضلة حدقة العين و عليه لا يمكن لأي كان أن يخفي لا مشاعر الخوف ولا إبطان النفاق.

ويحسن أن ننبه هنا إلى ارتباط البصر بالقلب في هذا الموضع من السورة؛ الأمر الذي تسبب في بلوغ القلوب الحناجر وهو تصوير دقيق للرعب الذي قذف في القلوب بعد أن جاءت المؤمنين: "جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا، وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق ومالأتهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة."[31]

كما جاء في تصوير القرآن لمشاهد واقعة الخندق إظهار نفاق المنافقين ومحاولة إضمارهم الجزع والريبة والخذلان وباتوا يريدون فرارا فكان استخدام حاسة البصر في هذا الموضع هو المناسب لما له من أدوار ووظائف عرفانية، والملفت للنظر في هذه الآية من سورة الأحزاب هو ارتباط الحواس في الكثير من الآيات بالقلب لأن: "العين رسول القلب ورائده ونافذته،"[32] وهنا تظهر قيمة دراسة القرآن الكريم من المنظور العرفاني واللساني في ذات الوقت ذلك أن: "للقرآن الكريم خصوصية منفردة في التعبير عن المعاني وببلاغة سامية لا يماثلها أحد"[33] من العالمين.

-يقول الله عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠.﴾[34]

لا يكتمل الحديث عن الإعجاز التصويري القرآني في السمع والبصر إلا بذكر الفؤاد الذي يستخدم للدلالة على القلب ذلك الوعاء الذي يضخ الدم من الشرايين إلى المخ وقد ورد في الصحاح أن الفؤاد هو:" القلب وجمعه أفئدة،"[35] والتدبر فيما جاء من التعريفات اللغوية للفظ الفؤاد يذهب بنا إلى أن: "القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط.. وروي عن النبي ﷺ إنه قال: "أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة، "[36] فوصف القلوب بالرقة، والأفئدة قريبان من السواء، وكرر ذكرهما لاختلاف اللفظين تأكيدا.. قال الزهري: ولا أنكر أن يكون القلب هو العلقة السوداء في جوفه.[37]

ورد الفؤاد في القرآن الكريم في العديد من المواضع مشتركا مع الحواس منها السمع والبصر فهو مركز العقل والإدراك وما يسترعي الانتباه ههنا أن هذا الارتباط يقوى كلما زاد التعلق بالقلب وهو سر من أسرار الاستخدام القرآني للمفردة ويتبدى ذلك في أن:" ألفاظ السمع والبصر والفؤاد والقلب، عندما ترد مضافة إلى جمع، كما في الآية الكريمة (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم و على أبصارهم غشاوة) يكون السمع مفردا والقلوب والأبصار جمعا، وقد عللوا ذلك بأن السمع في أصله مصدر، والمصادر لا تجمع، فلمح الأصل، وبأن مدركات السمع نوع واحد وهو الأصوات، أما مدركات القلوب والأبصار، فألوان شتى، وأنواع مختلفة، فأشير بالجمع و الإفراد إلى متعلق كل."[38]

ثمة أمثلة كثيرة أغفلناها، في السمع والبصر والفؤاد لأن المقام لا يسمح بذكرها جميعا وما سقناه كان عبارة عن نموذج لتوضيح أهمية المقاربة العرفانية في قراءة وتفسير النص القرآني، ولأن الإعجاز في القرآن الكريم حافل بالحياة التي تندك فيها كل العوامل الوجدانية الشاخصة في المشاهد المؤثرة ليوم القيامة وغيرها مما ورد في القصص القرآنية فالحركة تبقى: "علامة على وجود الحياة في الكائنات، كما أن السكون علامة على انعدامها فالحركة حياة والسكون موت، والتصوير بالحركة نوع من التصوير له تأثيره الشعوري في النفوس."[39]

4. خاتمة:

القرآن الكريم كتاب لا تنتهي عجائبه ولا تنقضي معجزاته، وقد خلصنا مما تقدم في هذا البحث إلى أن الإعجاز التصويري في السمع والبصر والفؤاد هو غيض من فيض وندعوا الباحثين في علوم اللغة خاصة المتخصصين في اللسانيات المعاصرة إلى محاولة الكشف عن تجليات المقاربة العرفانية في التفسير والتأويل القرآني فهي أحرى وأجدر بالدراسة والبحث وقد توصلنا في ختام هذا الورقة العلمية إلى:

-الإعجاز في القرآن الكريم يأتي في الكثير من المواضع مرتبطا بالحواس خاصة السمع والبصر.

- تنوعت الاستعارات القرآنية من الوجهة الإدراكية خاصة أثناء وصف أحداث اليوم الآخر مثل الجنة والنار.

- تتغير أساليب التصوير حسب السياق الذي ترد فيه ألفاظ السمع والبصر والفؤاد.

*** *** ***

الهوامش:

[1]- أحمد بسام ساعي، المعجزة، إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، ج1، د.ت، ص131.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج4، ص2817.

[3]- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1980، ص60.[3]

[4]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج2، ص 236.

[5]- أحمد بسام ساعي، المعجزة، إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ص 89.

[6]- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، 1425هـ-2004م، ط17، ص87.

[7]- أميل جير ضومط، العقل والقلب (خواطر في العلم والتربية)، مكتبة صادر، بيروت، د.ت، ص 87.

[8]- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص194.

[9]- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار الفكر، القاهرة، ص65.

[10]- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص115.

[11]- أحمد بسام ساعي، المعجزة، ص88.

[12]- المرجع نفسه، ص243.

[13]- المرجع نفسه، ص 314.

[14]- المرجع نفسه، ص 151.

[15]- عطية سليمان أحمد، الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية (النموذج الشبكي-البنية التصورية-النظرية العرفانية)، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، 2014، ص97.

[16]- المرجع نفسه، ص91.

[17]- فيفيان إيفانز وميلاني جرين، طبيعة اللسانيات الإدراكية، تر: عبده العزيزي، مجلة فصول، العدد 100، 2017، مج 25، ص 48.

[18]- ليكوف، جونسون، الاستعارة التي نحيا بها، دار توبقال، المغرب، 2009، ص3.

[19]- محمد طالب مدلول، الحواس الإنسانية في القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1428هـ-2007م، ص 22.

[20]- المرجع نفسه، ص25.

[21]- سورة الملك، الآية 8.

[22]- صادق الهلالي، حسين رضوان سليمان اللبيدي، الإعجاز العلمي، السمع والبصر في القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، 1427هـ-2006م، ط3، ص37.

[23]- الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تح: علي محمود مقلد، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص 322.

[24]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1409هـ-1988م، ص 397.

[25]- سورة الملك، الآية 8.

[26]- الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص324.

[27]- سورة الأحزاب، الآية 10.

[28]- الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص242.

[29]- عدنان الشريف، من علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم، دار الملايين، ط5، بيروت، 2001، ص 298.

[30]- المرجع نفسه، ص295.

[31]- عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، دار الفكر، ط1، بيروت، 1423هـ-2002م، ص 479.

[32]- محمد طالب مدلول، الحواس الإنسانية في القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1428هـ-2007م، ص73.

[33]- المرجع نفسه، ص73-74.

[34]- سورة الأنعام، الآية 110.

[35]- الجوهري، مختار الصحاح، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت، ص 488.

[36]- أخرجه، 219/5 كتاب بدء الخلق، باب قدوم الأشعريين، وأخرجه مسلم 71/1، كتاب الإيمان باب تفاصيل أهل الإيمان فيه.

[37]- ابن منظور، لسان العرب، 687/1.

[38]- بسيوني عبد الفتاح فيود، من بلاغة النظم القرآني، مطبعة الحسين الإسلامية، 1413هـ-1992م، ط1، ص 22 نقلا عن الإتقان، ج2، ص 301.

[39]- حمادي ربيعة، المكون التصويري في القرآن الكريم-دراسة في المظاهر النفسية-، مجلة المدونة، المجلد 8، العدد 2، جوان 2019، ص 1639.